الطاهر وطّار:
ما يبقى في الوادي غير حجاره

محمد عبيد الله*

بورتريه للطاهر وطار بريشة
الفنان عبد الفتاح علي

« ما يبقى في الوادي غير حجاره. اللاّز فقط ينبّه، بواسطة هذا المثل الشعبي.. إلى أن الأمور، كل الأمور مهما كانت أهميتها أو تفاهتها زائلة، وأن هناك سطحاً تمر فيه أمور، وقراراً أو عمقاً تستقرّ فيه أمور أخرى.. الأمور الثابتة»».

بين السطح والعمق، بين الطارئ والثابت ظلّ الطاهر وطار طوال رحلته يراهن مثل (اللاز) على حجارة الوادي.. على ما يبقى بعد الزوابع والفيضانات.. وقد أصاب كثير منها المجتمع الجزائري الذي عبّر عنه وطّار وعاشه في العمق، واتخذ منه منجماً لإبداعه، فرصد تحولاته منذ حرب التحرير ومروراً بتحولات دولة الاستقلال، ووصولاً إلى تسعينات الدم وحقبة الإرهاب..ثم حقبة الاستقرار النسبي في العقد الأول من الألفية الثالثة.

الروايات المبكرة للطاهر وطار غدت اليوم من كلاسيكيات الرواية العربية، بمعنى الثبات ، وليس القِدَم: اللاز، الزلزال، العشق والموت في الزمن الحراشي، الحوات والقصر، عرس بغل وصولاً إلى الروايات الأحدث زمناً: تجربة في العشق، الشمعة والدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء.

عام 1936 ولد الطاهر وطار لأسرة ريفية بربرية، في إحدى قرى القبائل على سفح جبال الأوراس، تربى في بيئة أبوية، يقودها الجدّ ذو المركز الاجتماعي والحضور القوي، وعنه ورث الطاهر الكرم والأنفة، وعن أبيه ورث الزهد والقناعة والتواضع وعن أمه الطموح والحساسية المرهفة، أما خاله الذي بدّد تركة أبيه الكبيرة في الزهو والأعراس فقد ورث

* جامعة فيلادلفيا- الأردن

عنه الطاهر الفنّ وقلة العناية بالمال. هكذا يشير الطاهر إلى مؤثرات أسرته وبعض صفاته.. ولكنه لا يشير إلى الرغبة في المشاكسة وفي إثارة المعارك والزوابع من أين جاءته.. وهو الذي يبغض السكون والصمت، ويميل دوماً إلى تفجيره.. ليرى ما يمكن أن يرشح عنه.

في المراحل المبكرة من حياته تلقى تعليماً دينياً رصيناً، فتعلم القرآن وعلوم القرآن والفقه في مدارس جمعية العلماء المسلمين، ثم في معهد الإمام عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، وهذا التكوين شكّل أساس معرفته العميقة باللغة العربية وبالتراث الكلاسيكي، ولكنه اكتشف في قسنطينة إلى جانبه الثقافة الأدبية الحديثة، فقرأ ما وقع تحت يده، ثم راسل بعض الجهات المصرية واتصل بالثقافة المشرقية من خلالها، وانتقل عام 1956 إلى تونس، وفيها اطلع على نماذج من الرواية الحديثة المترجمة والعربية، وبدأ اتصاله بالفكر والأدب الماركسي، فوجده قريباً مما يرغب أن يعبّر عنه، فمال إلى الماركسية فكراً وثقافة، وأخفى ميوله عن جبهة التحرير الوطني التي انتمى إليها عام 1956.

وعندما بدأ أعماله الأولى، قصصاً وروايات كانت كتابته تنطلق من مبادئ الواقعية الاشتراكية التي ساعدته على قراءة تحولات مجتمعه، وتأمل صراع طبقاته.. أخذ من الماركسية التعبير عن النزعات الثورية والتحررية، وتأمل الصراع الاجتماعي ببواعثه وملابساته المختلفة.. وأخذ من الواقع الذي انخرط فيه حرارة التجربة وصدق التعبير.. ومع صعود الواقعية وصعود الرواية العربية في إطارها، انتشر اسم الطاهر وطار، وغدا اسماً مرادفاً للجزائر، ومفتاحاً أساسياً لمن أراد معرفتها كما تتجلى في كتابة نابعة من عمق جراحها وتحولاتها. وطوال عقود، لم يكن القارئ العربي (المشرقي خاصة) يعرف من الجزائر غير الطاهر وطار ورواياته التي تحمل أسماء غريبة، وتقدم أجواء مشوقة جذابة، كما تنقل تجربة شعب عربي ترسخت صورته الاستشهادية المقاومة على مَدَى عقود المواجهة مع الاستعمار الفرنسي.

الطاهر وطار ذو الأصول البربرية، اختار الكتابة باللغة العربية، واختار الانتماء للثقافة العربية منذ البداية، وظل على مدى حياته واضح الموقف من الكتابة بالفرنسية، ومن التيار الفرانكفوني الذي نشط بعد الاستقلال، فأسهمت كتاباته في تشجيع التأليف والإبداع بالعربية، وكان لها دورها في المعركة الدائرة بين التيار العربي والتيار الفرانكفوني الذي لم يزل مستمراً حتى اليوم، وإن بأشكال متوارية أحياناً.. وعندما تصاعدت المشكلة الأمازيغية، أدرك وطار بواعثها السياسية، فظل إسهامه فيها مرتبطاً بميوله العروبية والوطنية ثقافة ووعياً وإبداعاً، وظل حريصاً على وحدة النسيج الجزائري في مواجهة القوى المخادعة التي تحاول تضليله وتمزيقه.

من تنوّع المجتمع الجزائري وتناقضاته، كوّن شخصيته العميقة المركّبة، البساطة الظاهرية عنوانها، ولكنها بساطة خادعة، تخفي تجربة عريضة، وتكويناً خاصاً، لا يتيسّر لأحد، وحين يصف شخصيته يقول: « أنا رجل زاهد ورجل متصوف وصاحب قضية موجودة على الساحة. وأبذل حياتي من دون أي تردد. ومعرّب أعرف الفرنسية، وبربري أكتب باللغة العربية، وابن فلاح وابن المدارس الدينية». ويضاف إلى ذلك تجربته السياسية الطويلة في جبهة التحرير الوطني من 1956 – 1984، وقد عمل في إطارها عضواً في اللجنة الوطنية للإعلام، ومراقباً وطنياً مكّنته وظيفته من السفر إلى مختلف الولايات الجزائرية والإطلال بعمق على الواقع الجزائري، ثم شغل منصب مدير الإذاعة الجزائرية ..كل ذلك أغنى تجربته وعمّق اتصاله بمجتمعه، وفتح كتابته على آفاق الواقع المتدفّق.. أما الماركسية فكانت خياراً فكرياً مساندا في تكوين رؤيته ومنهجه التحليلي العميق، ولكنها ليست ماركسية خالصة، بل لا يمكن فصلها عن مختلف العوامل التي تداخلت في إهاب هذا المثقف المختلف.

أواخر الثمانينات أسس وطار وعدد آخر من المثقفين (الجمعية الجاحظية) التي عمل وطار رئيساً لها، وهي ليست جمعية عادية، فقد حولها وطار إلى بؤرة ثقافية عربية، تؤمن بالديمقراطية من خلال شعارها (لا إكراه في الرأي) وتعتني بالكتاب العربي رغم الظروف الصعبة، وإذا ما قادتك رحلتك يوماً إلى (الجاحظية) في أحد الشوارع المتفرعة عن «ديدوش مراد» فلن تستغرب وجود الفتيات «المحجّبات» على نحو لافت، العربيات لغة وملامح وابتسامات، ولن تستغرب الجو «المحافظ» الذي يجلّل الجمعية ويخترق هواءها.. إنها من الأماكن المركزية التي

تؤكّد لك عروبة (الجزائر) وعروبة ثقافتها وحضور الإبداع العربي فيها... سترى صورة (يوسف سبتي) والمكتبة المسماة باسمه، وهو واحد من المثقفين الذين قضوا نحبهم في مرحلة الدّم، أما الطاهر وطار فسيقول لك بأنه لم يحتج إلى أية حماية طوال تلك الحقبة، وستعرف أنه المثقّف الوحيد الذي احتج على إلغاء الانتخابات البرلمانية التي فاز بها الإسلاميون عام 1992، وهو ما خلّف كل ذلك السيل من الدماء.. وبسبب من موقفه ذاك جرى تهميشه ووجهت إليه اتهامات قاسية من الأوساط الثقافية، لكنه ظل مدافعاً شرساً عن مواقفه الديمقراطية، رافضاً لقتل المثقفين مهما تكن انتماءاتهم...كل هذا سيدفعك للتساؤل عن ماهية «ماركسية» وطار و»اشتراكيته» وستتذكر أن انتماءه الاشتراكي ليس إلا انتماء نضاليا منحازا إلى العمال والفقراء والمضطهدين، أما ما عدا ذلك فهو عروبي إسلامي في أعماقه، مناهض للاحتلال وللفرانكفونية بكل أقنعتها اللغوية والثقافية.

في كل زياراتي للجزائر حرصت على المرور به في الجاحظية منذ تعرفت إليه أول مرة...كما دعاني مع أصدقاء آخرين إلى بيته خلافا لعادة إخوتنا الجزائريين، جاء بسيارته الصغيرة إلى الفندق الصغير القديم «البير بروميه» الذي يرجع بناؤه إلى حقبة الاستعمار، وتجول بنا في بعض الشوارع والأحياء، وكان يحفظ تاريخ العاصمة، ويعرفنا به قبل أن نصل بيته المضياف، وأذكر من حضور تلك الليلة الوطارية: الشاعر والكاتب عز الدين مدني رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين «آنذاك» ووزير الإعلام الجزائري حاليا، ومن تونس: بوشوشة بن جمعة وكمال الرياحي، وانطباعي عن الطاهر أنه متحدث لبق شديد الألفة والحساسية، يسأل كل ضيف عن موطنه ويتواصل معه ببساطة من خلال خبرة الطاهر ومعرفته بكل أحوال الجزائر وولاياتها وقراها، فضلا عن اتساع صلاته العربية. وأما معرفته بالإبداع الأردني فكانت مركّزة في إنتاج الراحلين: غالب هلسا ومؤنس الرزاز.

وطار بوجوهه المختلفة، بطبقاته المركبة، بمعاركه التي لا تنتهي، عنوان عريض من عناوين الثقافة العربية في الجزائر... وبقاء اسمه وإبداعه يعيدنا مجدداً إلى المثل الشعبي المرتبط باللاز الشخصية الروائية الشهيرة، التي أبدعها وطار نفسه «ما يبقى في الوادي غير حجاره».
رحل عم طاهر، أو سي الطاهر، كما يسميه إخوتنا في الجزائر، وكما اعتدنا أن نناديه، ولكن اسمه سيظل حيا مضيئا في إبداعنا الروائي الحديث، وسنظل نتعامل معه كما لو كان حيا، وسنظل كلما زرنا الجزائر العاصمة نقطع الطريق الطويل سيرا على الأقدام على امتداد شارع «ديدوش مراد» لعلنا نصل «الجاحظية» فنلم بطيفه أو أصداء صوته العروبي النقي.